

العنوان: بحث في موارد كتاب فتوح الشام لأبي عبد الله الأزدى

المصدر: مجلة موارد

الناشر: جامعة سوسة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المؤلف الرئيسي: لاعة، محيي الدين

المجلد/العدد: ع16

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2011

الصفحات: 165 - 196

رقم MD: 654408

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: AraBase, HumanIndex

مواضيع: كتاب: فتوح الشام الله عبد بن محمد ،الأزدى ، الأزدى، ت. حو. 165 هـ. الإسلامي القبائل ، التاريخ ، العربية الإسلامية الفتوحات ،

رابط: <http://search.mandumah.com/Record/654408>

بحث في موارد كتاب "فتوح الشام" لأبي عبد الله لأزدي

محي الدين لاغة *

لا مجال للشك في أنّ معرفة التاريخ العربي الإسلامي قد توسعت وتعمقت خلال القرنين الأخيرين مُستفيدةً من الحراك العلمي والثقافي الذي ميز العالم المعاصر والذي تجلّى من خلال نشر المئات من أمهات الكتب ذات الصلة بالتاريخ الإسلامي الأول بالخصوص وتحقيقها. ولأنّ ذلك تزامن ذلك مع توسع أفق فلسفة علم التاريخ فقد عنيت عديد الدراسات بالكتابة التاريخية عند العرب أسهم فيها باحثون غربيون ثم عربٌ ومسلمون تمحورت حول تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين كما سلطت الضوء على الإطار العام لنشأتها وسعت إلى تبين خصائصها⁽¹⁾. مع ذلك مازالت قضايا كثيرة من المسألة لم تحل سواء منها ما يتعلق ببيدات علم التاريخ في الفضاء العربي الإسلامي وعلاقته بالمعارف الإسلامية الأخرى أو إسهامات الأقاليم المختلفة في ذلك. في هذا الإطار من البديهي أن يساعد الكشف عن مصادر جديدة، تأخر نشرها لسبب أو لآخر، على فهم أدقّ للقضايا المطروحة، ويمثل كتاب فتوح الشام لأبي إسماعيل

(* كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة.

(1) منها : فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح العلي، مكتبة المثنى ببغداد 1963/ عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، دار المشرق 1983/ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني ، ترجمة محمد فهمي حجازي، إدارة الثقافة و النشر بجامعة سعود الإسلامية 1983/ شاكور مصطفى، التاريخ العربي و المؤرخون، بيروت، جزءان، دار العلم للملايين، 1975/ هملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، بيروت ، دار العلم للملايين، 1979/ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة حليم النجار، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، دون تاريخ(د ت).

Sauvaget J., *Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman au moyen âge*, Paris, 1946/ Gibb H., article Tarikh, *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition tome IX/ Richer G., Medieval Arabic Historiography, *Islamic Studies*, Vol. XXIII (1984) n°3 p. 225-247/ Cahen Cl., L'historiographie arabe des origines au VII^e siècle de l'Hégire, *Arabica* tome XXXIII (1986) fascicule (2 p. 133-198.

محمد بن عبد الله الأزدي البصري المتوفى في حدود سنة 231هـ/ 845م حسب أغلب من ترجم لحياته⁽¹⁾ واحدا من هذه المصادر.

وقد نُشرَ هذا الكتابُ المستشرقُ الإيرلندي وليام ناسوليس مرةً أولى سنة 1854 بالهند⁽²⁾، ثم تبيّنَ أن تلك النسخة المنشورة لم تكن غير قسم من مصدر أوسع وُجد لاحقا بإحدى مكاتب دمشق والذي قام الباحث عبد المنعم عامر بتحقيقه ونشره⁽³⁾ وهي النشرة الذي سيتم اعتمادها في هذا العمل. لكن اللافت للانتباه هو عدم اعتماد هذا المصدر بشكل واسع من قبل من درس حركة الفتح العربي لبلاد الشام وتبعاته، إذ لم يُشر إليه دونر في بحثه حول الفتوحات الإسلامية⁽⁴⁾ أو نجدت خماش في كتابها حول الشام في صدر الإسلام⁽⁵⁾ أو عطوان في عمله حول الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام⁽⁶⁾، كما لم تتم الإشارة إليه بشكل واسع في البحوث ذات الصلة على غرار الندوات المتعاقبة حول تاريخ بلاد الشام⁽⁷⁾. وإذا كان تأخرُ نشره مثلَ أحد الأسباب التي حالت دون ذلك فإن إدراك محتوى الكتاب لا بد أن يدفع الباحث في فتوح الشام أو في تقنيات الكتابة التاريخية إلى إعارته كل الاهتمام.

(1) عمر كحالة هو الوحيد الذي ذكر أنه من أهل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى و دار التراث العربي ببيروت دت، ج 10 ص 199.

(2) نشرتُ بكلكتا (الهند) سنة 1854.

(3) الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة جبل العرب 1980 (ضمن سلسلة من التراث العربي).

4) Fred McGrow Donner, *The Early Islamic Conquests*, Princeton University Press, Princeton, New Jersey 1981.

(5) نجدت خماش، الشام في صدر الإسلام (من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية)، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سنة 1987.

(6) حسين عطوان، الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دمشق، دار الجبل، الطبعة الأولى، سنة 1987.

(7) المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 20-25 نيسان 1984، بيروت، الدار المتحدة للنشر، 1984/ أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية/ جامعة اليرموك 16-22 آذار 1985، الندوة الثانية، المجلد الثالث تحرير محمد بخيت 1957.

إنّ ما يزيدُ من أهمية هذا المصدر إضافةً لأسلوبه الجذاب في سرد الأحداث نقلُ مؤلّفه عن مصادر عديدة يغيبُ غالبها عند من أرخ لفتوح الشام (على غرار مصدرٍ حمل نفس العنوان ومنسوب لمحمد ابن عمر الواقدي) بما في ذلك من إحياءات عن ارتباط الرواية التاريخية بمنهج راوي الخبر وربما أيضاً بذاته المذهبية والاجتماعية؛ وهو الجانب الذي سيتم التركيز عليه بشكل رئيسي في هذا البحث. ولذا يُصبحُ الغرض من تتبع موارد كتاب فتوح الشام وزيادةً عن كونه محاولة أخرى للإحاطة بنشأة الكتابة التاريخية في الفضاء العربي الإسلامي والتأكيد على إسهامات إقليم الشام (وهو الذي مثل مركزاً للدولة الإسلامية زهاء قرن وتواصل إشعاعه العلمي والفكري لأكثر من ذلك بقرون) في ذلك، هو تناولُ مدى تأثير الأطر الموضوعية العامة في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية بين القرنين الأول والثالث للهجرة.

1- موارد فتوح الشام :

ترقى أخبار محمد بن عبد الله الأزدي إلى جيل أول من شخصيات شاركت في فعاليات فتوح الشام بشكل أو بآخر، ومن بين من أكثرَ عنهم الرواية في هذا الخصوص:

عبد الله بن قُرط الثُمالي المنحدر من ثُمالة بن أسلم المتفرعة عن أزد شنوءة⁽¹⁾ الذي يُعتبرُ من أهم مورد فتوح الشام⁽²⁾. وكان أحد أمراء الحرب مع أبي عبيدة ومقرباً منه بما أنه استعمله على مدينة حمص بعد السيطرة عليها. وقد تواصل دوره القيادي في فترة ولاية زياد بن أبي سفيان كما حضي بثقة معاوية بن أبي سفيان (وإن كان من غير الواضح إن كان ذلك خلال ولايته أو

(1) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985، ج 1 ص 153/ الندوة الدولية: دمشق في التاريخ 20-24/11/2006، جزءان، جامعة دمشق، وزارة التعليم العالي بالجمهورية العربية السورية، دون تاريخ نشر.

(2) الأزدي، نفس المصدر، ص 32، 77، 130، 145، 172، 183، 234، 274

خلافته) إذ قام بتعيينه من جديد على نفس المدينة⁽¹⁾. وإذا كانت المعلومات التي أوردها ابن عساكر عن وجود اضطراب مستمر في علاقة ابن قُرط بالخليفة عمر بن الخطاب (وربما بواليه على الشام) إلى حدّ عزله عن حمص وتهديده بالحرمان من الامتيازات التي كان يحظى بها⁽²⁾ تأتي سريعة ولا تدقق أسباب ذلك وقد تُؤشّر إلى صراع على النفوذ أو تحالفات مع رموز في السلطة (الصراع بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح) فهي في كلّ الأحوال دليل على أنّ عبد الله الثمالي كان شخصية محورية في الطور الأوّل من تاريخ الشام الإسلامي.

يلي عبد الله بن قُرط من حيث الأهمية من مصادر فتوح الشام عمرو بن محسن الأزدي. ويتميز بكونه شاهد عيان لأحداث فتوح الشام. وينحدر ابن محسن من بني غنم بن داودان بن مدركة الذين انتقلوا في أعداد كبيرة إلى المدينة في بداية الدولة الإسلامية ثم انضموا إلى الجيوش المتجهة نحو الشام، وهذا ما يفسر مشاركة عمرو بن محسن بدوره في معارك فحل وأجنادين واليرموك وربما بقية معارك فتوح الشام. وتردّ الروايات المُسنّدة لابن محسن عن موضوع الحال مباشرة أو استنادا إلى آخرين شاركوا بدورهم في مختلف المعارك الشامية وفي مقدّمتهم عبد الله بن قُرط الثمالي⁽³⁾.

وهناك مصدر رئيسي آخر من مصادر الأزدي هو قيس بن أبي حازم الأحمسي⁽⁴⁾، وأحمس فرع من قبيلة بجيلة. كانت هذه القبيلة منتشرة في جبال

(1) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571 هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محبّ الدين عمر بن غرامة العمري، دار الفكر 1995، ج 32 ص 5 وما بعدها/ ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، تهذيب التهذيب، دار المعرف النظامية بحيدر آباد الدكن بالهند (ت 1326 هـ)، 5 ص 361-362.

(2) "كتب (عمر) إلى عبادة الصامت أن يشخص عبد الله بن قُرط الثمالي، فلما قدم عليه قال: لأردنك إلى بلادك ورعية الإنبل... فردّه إلى بلاده ثمالة فمكث بها سنة ثم كتب إليه. فقدم عليه فرضي عنه وأذن له إلى حمص"، ابن عساكر، نفس المصدر، ج 32 ص 12.

(3) الأزدي، نفس المصدر، ص 41، 71، 83، 96، 97.

(4) الأزدي، نفس المصدر، ص 66، 77، 81.

السراة جنوب مكة ويبدو أنها كانت محدودة التأثير في صدر الإسلام بسبب الصراع مع القبائل الأخرى والتنافس بين عشائرها⁽¹⁾ وهذا ربما ما يفسر سرعة انخراطها في الجيوش المتجهة نحو العراق والشام بحثاً عن دور سياسي أوسع في إطار دولة المدينة الناشئة. ضمن هذا السياق انخرطت مجموعات من أحمرس وزيد بن الغوث وعُرينة وغيرها (بقيادة جرير بن عبد الله) في جيش خالد بن الوليد بالعراق وتحديدًا في الحيرة قبل الانتقال معه إلى الشام دعماً للوحدات الإسلامية التي سبقت إلى الإقليم انطلاقاً من المدينة، وضمن هذا السياق حضروا اليرموك وإخضاع دمشق ومدن أخرى وذلك قبل الرجوع إلى العراق والمشاركة في معركة القادسية⁽²⁾. وترقى أخبار قيس بن حازم الواردة في فتوح الشام إلى أحمرسي آخر بالولاء يُعتقَد أنه من التابعين وهو إسماعيل بن أبي خالد، والذي قد يكون رأى ستة ممن رأى النبي منهم أنس بن مالك وعبد الله بن أبي أوفى حسب ابن حجر⁽³⁾.

واستند الأزدي إلى مصدرين آخرين هامين في فتوح الشام، الأول هو أدهم بن محرز بن أسد (أو أسيد) الباهلي⁽⁴⁾، وكان أحد قادة فتوح الشام بحسب إشارة الأزدي بما أنه كان يحمل أول راية دخلت أرض حمص⁽⁵⁾. أما الثاني هو ثابت بن سهل بن سعد أو سعيد الأنصاري، وقد نقل عنه الأزدي خبر تحول خالد بن الوليد إلى أجنادين وآخر عن معركة اليرموك وثالث عن وفاة أبي عبيدة⁽⁶⁾.

1) Watt M., art. Badjila, *Encyclopedie de l'Islam*, nouvelle édition, vol.1, pp.889 et suivantes.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، 6 ص 36/ الطبري، ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ج 3 ص 367، 553 / ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار الكتب العلمية، نسخة طبق طبعة كلكتا لسنة 1853، 5 ص 249

(3) ابن حجر العسقلاني، نفس المصدر، 6 ص 344.

(4) الأزدي، نفس المصدر، ص 105، 143، 149.

(5) الأزدي، نفس المصدر، ص 143، 149.

(6) الأزدي، نفس المصدر، نفس المصدر، ص 85، 219، 273.

إضافةً لمصادر الأزدي سابقة الذكر تردُّ روايات عن آخرين أقلُّ حضوراً :

راشد بن عبد الله الأزدي، وكان ممن شهد اليرموك وروى عنه صاحب فتوح الشام خبراً واحداً عن تلك المعركة⁽¹⁾. ونفس الشيء ينطبق على أبي حفص الأزدي، الذي جاء عنه في فتوح الشام خبرٌ يتعلّق بكتاب أبي عبيدة بن الجراح إلى الخليفة أبي بكر⁽²⁾. وراشدٌ هو إخباري مغمور لم يرو عنه غير الطبري بعض أخبار المنطقة الشرقية والحركة العباسية ودولتها⁽³⁾. ويُفهم من إشارة جاءت في تاريخ الرسل أنه كان في عسكر أبي مسلم الخراساني الذي حارب عبد الله بن علي بن العباس سنة 137هـ / 754م وبالتالي عاصر نهاية الدولة الأموية و صدر الدولة العباسية.

ونقل الأزدي عن حمزة بن مالك الهمداني⁽⁴⁾، وكان أحد زعماء وفد قبيلة همدان الذي جاء إلى الرسول كما كان أيضاً على رأس من قدم من تلك القبيلة على أبي بكر عندما دعا القبائل اليمنية للمشاركة في فتوح الشام. وتدل إشارات مختلفة إلى مكانته الاجتماعية وتأثيره الواسع في قبيلته خلال المرحلة السابقة للإسلام، وهو تأثير تواصل لاحقاً و تجلّى خاصة أثناء الحرب الأهلية الأولى إذ قاد جند قومه المساندين لمعاوية في معركة صفين كما كان أحد شهود التحكيم الممثلين للمعسكر الشامي فيما عُرف بالتحكيم⁽⁵⁾.

(1) الأزدي، نفس المصدر ، ص 212.

(2) الأزدي، نفس المصدر ، ص 30.

(3) الطبري، ج 4 ص 302 / ج 5 ص 315، 473، 546 / ج 6 ص 524، 536 / ج 7 ص 421، 479، 481، 489، 490.

(4) الأزدي، نفس المصدر ، ص 39 وما بعدها.

(5) ابن سعد، الطبقات، 1 ص 341/5، 57، 58 / الإصابة، 5 ص 14 / أحمد بدر، النور الإداري و الثقافي لطبقة الصحابة النازلة في الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (الندوة الثانية)، جامعة اليرموك 16-22 مارس 1985، ص 375-409.

ومن الموارد التي اكتفي مؤلف فتوح الشام بنقل خبر وحيد عنها: **صُدِيَ بن عَجَلان بن وهب المعروف بأبي أُمّة الباهلي**⁽¹⁾، وهو صحابي من باهلة انتقل إلى الشام في إطار حركة الانتشار وبقي هنالك وتوفي في قرية من قرى حمص على الأرجح في أواخر خلافة معاوية بن سفيان⁽²⁾. ونفس الملاحظة تنطبق على كل من **عبد الأعلى بن سُرّاقة الأزدي**⁽³⁾ و**عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي (الأزدي)**⁽⁴⁾ الصحابي الذي شارك في فتوح الشام ثم استقر بالكوفة⁽⁵⁾. وينحدر كلاهما من أسلم المتفرّعة عن الأزد والتي يُؤسّرُ ما يذكره ابن عساكر إلى مشاركتها بفاعلية في مختلف مراحل فتوح الشام ولاسيما في المعارك التي خاضها جيش خالد بن الوليد⁽⁶⁾.

ولئن نُقل مؤلف فتوح الشام بعض الأخبار عن رُواة نسبوا إلى مدرسة المدينة المختصة في السيرة على غرار **ثابت بن أسلم البُنّاني**⁽⁷⁾ و**عبد الملك بن نوفل بن مساحق القرشي العامري**⁽⁸⁾ فيبدو أنّ غالب شخصيات الجيل الأول من موارد الأزدي تنحدر من أصول يمنية انتقلت إلى الشام أثناء أطوار فتحه ومنهم من عاش باقي حياته فيه ومنهم من تحول عنه إلى لعراق حين التحقق قسم من الجند بالجبهة العراقية بعد معركة اليرموك.

(1) الأزدي، أبو إسماعيل، نفس المصدر، ص 52.

(2) المزي، تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة 1992، 13 ص 158-9.

(3) الأزدي، نفس المصدر، 225.

(4) الأزدي، نفس المصدر، ص 1.

(5) ابن سعد، الطبقات، ص 172، 3 ص 183، 6 ص 344/ ابن عساكر، نفس المصدر، ج 31 ص 30 وما بعدها/ ابن حجر، الإصابة، 4 ص 38-39/ تهذيب التهذيب، 5 ص 151/ المزي، تهذيب الكمال، 14 ص 317-318.

(6) ابن عساكر، نفس المصدر، ج 18 ص 20/ ج 7 ص 198.

(7) الأزدي، نفس المصدر، ص 9، 16، 273.

(8) الأزدي، نفس المصدر، ص 27، 42، 90، 133، 136، 186، 250.

وتتطبق نفس الملاحظة عموماً على موارد خبر أبي عبد الله الأزدي من الجيل الثاني، إذ يتبين أنهم ينتمون في جملتهم إلى قبائل يمنية استقروا بالشام أو بالعراق؛ أهمهم :

أبو جهضم الأزدي وهو على الأرجح من التابعين بما أن ابن سعد لم يذكره ضمن الصحابة في طبقاته، وقد روى عن عبد الله بن قُرط الثمالي إما مباشرة أو بواسطة شخص اسمه عبد الرحمن بن السليك الفزاري⁽¹⁾؛ غير أن ما يُلاحظ هو أن أبا جهضم وإن كان مصدراً مهماً للأزدي ومع ما يميّز رواياته بما أنه استند من بين مصادره على شهود عيان من غير العرب كانوا ضمن المعسكر البيزنطي أثناء المواجهات⁽²⁾ فإنه لا يُعدُّ مصدراً رائجاً للرواية إذ لم يرو عنه البلاذري وابن أعثم وابن خياط، بينما اكتفى الطبري بإسناد روايتين فحسب له تتعلّقان بأخبار الحجاج⁽³⁾.

ومن بين مَنْ روى عن عبد الله بن قُرط أيضاً **سفيان بن سليم الأزدي** وعنه أخذ حبيب بن مسلمة القرشي⁽⁴⁾. وإن لا يتوفّر الشيء الكثير من المعلومات عن الأول فإن المصادر تكاد تجمع على الدور الذي لعبه الثاني في مختلف مراحل فتوح الشام ثم في الهجمات التي استهدفت الأراضي البيزنطية وأرمينيا خلال العهد الأموي، حتّى أنّه سُمّي حبيب الروم⁽⁵⁾.

أما **إسماعيل بن أبي خالد البجلي والحارث بن كعب اللذان** نقلّا أخبار قيس بن حازم فهما ينحدران من عرب الجنوب: فالأول مولى لعشيرة أحمس

(1) الأزدي، نفس المصدر، ص 130، 151، 180، 234.

(2) "سألت الرومي" و "عن رجل من الروم"، الأزدي، نفس المصدر، 208، 214، 215.

(3) الطبري، نفس المصدر، 5/97، 6/366-7.

(4) الأزدي، نفس المصدر، ص 156، 160، 184.

(5) ابن سعد، نفس المصدر، 4 ص 393/ البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع و عمر

أنيس الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، 1987، 105، 203، 261، 213، 217، 259،

279، 280، 281، 277/ الطبري، نفس المصدر، 3، ص 396، 408-4 ص 55،

248، 163، 263، 307/ الإصابة 2 ص 323-324.

البحلية والثاني ينتمي إلى عشيرة والبة الأزدية. ومع أنهما مصدران مهمان في تاريخ الطبري في أخبار فتوح العراق والفتنة⁽¹⁾ إلا أن روايتهما تكاد تغيب عن المصادر الأخرى كما أن الصبغة القبلية لرواياتهم تبدو ساطعةً بدليل أن الطبري أخذ مُجمل تلك الروايات من أبي مخنف الأزدي.

وتنطبق نفس الملاحظة على باقي مصادر فتوح الشام من هذا الجبل الثاني: فلم يرو عن يزيد ابن جابر، الذي نقل روايات عمرو بن محسن، الواقدي في كتابه فتوح الشام كما لم يعتمد البلاذري أو ابن أعثم الكوفي مصدرًا في كتابيهما حول الفتوح، أما الطبري فقد اكتفى برواية خبرين عن ابن عمرو ابن محسن عثمان يتعلقان بولاية يزيد بن المهلب في خراسان⁽²⁾. وكذلك الأمر بالنسبة لفروة أو قرة بن لقيط المحاربي وعمرو بن مالك القيني الذين نقلوا روايات أدهم بن محرز الباهلي؛ فرغم الدور السياسي الذي لعبه الأول بمشاركته في انتفاضة شبيب الخارجي في السنة السابعة للهجرة فلم يرو عنه البلاذري وابن خياط ولا ابن أعثم وإن جاءت عنه في تاريخ الرسل بعض الأخبار المتصلة بفتوح أذربيجان وأرمينيا و انتفاضة شبيب⁽³⁾ أما الثاني (عمرو بن مالك) فلم يرو عنه أيضا غير الطبري، وسوى خبرين. أما الصقعب بن زهير، الذي روى عنه الأزدي أخبار راشد بن عبد الرحمن الأزدي، فهو مغمور لم يرو عنه كذلك غير الطبري⁽⁴⁾.

(1) الطبري، نفس المصدر، 1 ص 15، 281، 442، 444 / 2 ص 386، 399، 3/ 632 ص 429، 495، 516، 537، 576، 615- / 4 ص 13، 24، 163، 224، 405، 435، 527، 555، 5/ 556 ص 106، 113، 122، 126، 127، 383، 385، 387، 420، 461، 6/ 462 ص 23، 26، 27.

(2) الطبري، نفس المصدر، 6 ص 524، 527.

(3) الطبري، نفس المصدر، 4، 246، 247 / 5 ص 599، 602 / 6 ص 215، 219، 231، 245، 256، 261، 262، 270، 278، 280، 281.

(4) الطبري، نفس المصدر، ص، 3 ص 187، 195 / 5 ص 38، 201، 253، 254، 279، 357، 367، 378، 381، 382، 413، 429، 451، 460، 571، 583 / 6 ص 9.

ومن موارد الأزدي أيضا من هذا الجيل الثاني تردُّ بعض الأعلام الأخرى وإن كانت بأقل تواتر من السابقة تدلُّ سلسلة أسانيدهم على أنهم اعتمدوا الرواية المدينية؛ لكن ما يُلاحظُ هو أنهم إمّا مُنحدرين بدورهم من عشائر أزدية كالحارث بن كعب⁽¹⁾ الذي ينتسبُ إلى عشيرة والبة وثابت البُناني⁽²⁾ المُنتسب إلى أسلم أو نقلوا روايات يتماشى مَتْنُها والمحتوى العام الذي أراده مؤلفُ فتوح الشام ومن هؤلاء محمد بن يوسف الفاريابي⁽³⁾ وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر⁽⁴⁾ وعبد الملك بن نوفل ابن مساحق⁽⁵⁾.

بقيت الإشارة إلى أمرٍ لا شك في كونه يلفتُ انتباه الباحث المُتنبِّع لمكانة رواد الرواية التاريخية عند المسلمين ويتمثلُ في مكانة عامر الشعبي (المتوفى في حدود 103 هـ/721) عند الأزدي. فرغم كونه كوفيًا يرقى نسبُه إلى عشيرة ذي الشعبين الحميرية التي تفرقتُ في صدر الدولة الإسلامية بين الكوفة والشام والمغرب⁶ وكونه مصدرا مهمًا لحركة الفتح في بلاد الشام وخاصة العراق في فتوح البلاذري وتاريخ الطبري مثلاً، ورغم أنَّ معلوماته الواردة في فتوح الأزدي ترقى على الأرجح إلى مصادر قبلية وإن لم يصرَّح بها⁷، فإنه لا يحتل إلا مكانة ثانوية بين مصادر فتوح الشام؛ وقد يُفسَّرُ هذا الأمرُ بكونه لم يشهد فتوح الشام إذا سلَّمنا بما أورده ابن سعد الذي أرخ ميلاد الشعبي سنة معركة جلولاء (16 هـ/637م).

ويُستفادُ ممَّا سبق أنَّ مدونَ فتوح الشام ولئن روى عن بعض المصادر المدينية مثل ثابت البُناني فإن الغالبية الساحقة لموارده، سواءً من الجيل الأول

(1) الأزدي، نفس المصدر، ص 81، 172

(2) الأزدي، نفس المصدر، ص 75، 219، 273

(3) الأزدي، نفس المصدر، ص 75، 219، 273

(4) الأزدي، نفس المصدر، ص 122

(5) الأزدي، نفس المصدر، ص 136، 186، 250

(6) الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، دت، 1 ص 79

(7) الأزدي، نفس المصدر، ص 66، 265.

أو الجيل الثاني، هي يمنية وخاصة أزدية وإن كانت هناك استثناءات نادرة يبدو أن دورها العسكري أو مكانتها الاجتماعية هو الذي برّر اعتمادها مثل عبد الملك بن نوفل ابن مساحق القرشي العامري والذي ترقى رواياته إلى أبي سعيد المقبري وخاصة إلى هاشم بن عتبة بن أبي العاص⁽¹⁾. فقد عبد الملك بن مساحق أحد قادة الوحدات العسكرية التي خرجت من المدينة في اتجاه الشام قبل تجمعها في اليرموك، ولذا جاءت رواياته أقرب إلى روايات المدينة التي لا تظهر عليها الصبغة القبلية⁽²⁾.

ما يُستنتج كذلك هو أن موارد فتوح الشام ليست واسعة الانتشار إذ انفرد الأزدى بالرواية عن المصادر المذكورة سالفا ولا سيما موارد الجيل الثاني. فلم يرو عنهم من بين المؤرخين المعروفين غير الطبري؛ وحتى هذا الأخير فقد نقل عنهم بواسطة أزدى آخر هو أبو مخنف لوط بن يحيى إذ أن المتأمل في روايات كل من أبي جهضم وإسماعيل بن أبي خالد البجلي والحارث بن كعب وقرّة أو فروة بن لقيط المحاربي وعمرو بن مالك القيني والصقعب بن زهير الواردة في تاريخ الرسل يلاحظ أنها ترقى كلّها إلى أبي مخنف. مع العلم أن أبا مخنف وإن اهتم بتاريخ الشام ويُنسب إليه كتاب في فتوحه فقد انصبّ اهتمامه على "أمر العراق وأخبارها وفتوحها" حسب تقييم واحد من إخباريي القرن الثالث للهجرة⁽³⁾.

وزيادة عما سبق هناك مظهر آخر للصبغة القبلية لمصادر أبي إسماعيل الأزدى: متن الخبر.

(1) الأزدى، نفس المصدر، ص 27، 42، 90، 133، 186.

(2) وجه آخر يؤكد تميز ابن مساحق عن بقية مصادر الأزدى هو مجال اهتمام رواياته الواردة في تاريخ الطبري والمتصل خاصة بأخبار الفتنة وخاصة أن من روى عنه من الإخباريين لا يُعدون المتعصبين لقبائلهم في مقدمتهم أبو الحسن المدائني، الطبري، نفس المصدر، ص 220 / ص 278، 322، 478، 480، 482، 484، 485، 487، 493، 496، 539، 577.

(3) أورد ابن النديم: "قرأت بخط أحمد بن الحارث الخزاز قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس والواقدي بالحجاز السيرة وقد اشتركوا في فتوح الشام"، الفهرست، بيروت، طبعة دار المعرفة، ص 136، 137.

2- محتوى يهدف إلى إبراز دور الأزد :

تتوفر في المصادر العربية مادةٌ غزيرةٌ تُمكن من تتبع مدى حضور القبيلة العربية في فتوح الشام وبخاصة دورها في معركة اليرموك وبالتالي تعطي الباحث فرصة مقارنة ما يأتي فيها بما أورده أبو زكريا الأزدي في فتوحه.

فقد أخذ الواقدي معلوماته عامةً عن مصادر مدينيّة، نلمسُ فيها إقراراً بالاستجابة السريعة لزعماء القبائل اليمنية المختلفة (حمير ومذحج ومراد والأزد وطيّء) لنداء الخليفة أبي بكر عندما قرّر توجيه الوحدات إلى الشام وكذلك بدورها الحيوي سواءً في مختلف الوحدات المنتشرة بالشام أو أثناء معركة اليرموك الرئيسية⁽¹⁾؛ ومع ذلك فإن الواقدي يُبقي الدور الحاسم في مختلف معارك الشام بين أيدي زعماء المدينة وخاصة الأرسطراطية القرشية⁽²⁾.

أما بالنسبة لسيف بن عمر التميمي فإن الجيش المتجه نحو الشام كان مؤلفاً من "مُسْتَفْرِي اليمن ومنْ بين مكة واليمن ... ومن تهامة وعُمان والبحرين والسرّو" أي من قبائل من مختلف أقاليم شبه الجزيرة العربية استجابت لنداء أبي بكر. وأضاف سيف لتلك الوحدات ما سمّاه "جيش البدال" والمؤلف حسبما يبدو من الجند الذي كان مع أمراء الصدقات الموزعين على قبائل الحجاز والذين خيروا الانضمام إلى الوحدات المتجهة نحو الشام. ويتواصل التعميم عند سيف في استعراضه لجيش المسلمين في معركة اليرموك؛ فهو وإنْ أبرزَ دور الصحابة والقادة العسكريين من خلال سرده لقادة الكراديس (الفرق) فقد ركّز على الحضور اللافت للقعقاع بن عمرو التميمي، ومن خلاله التميميين، في المعركة بلْ ينفرد من بين الإخباريين بالإشارة إلى

(1) الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، 1 ص 6، 7، 25، 164، 194، 205، 206، 211.

(2) الواقدي، نفس المصدر، 1 ص 207، 216، 217، 218.

تعيينه قائدا لأحد تلك الكراديس كما ذهب إلى أن دوره كان أساسيا في حصار دمشق والسيطرة عليها⁽¹⁾.

وإذا كان هذا التعميم هو السمة التي تلاحظ في روايات كل من ابن الكلبي والهيثم بن عدي وابن إسحاق والمدائني المنتشرة في فتوح للبلاذري أو تاريخ ابن خياط⁽²⁾، فإنه يبقى لافتا للنظر عندما ينهجه سيف بن عمر المعروف بتبنيّه الشدّيد للرؤية القبليّة في الأحداث التاريخيّة⁽³⁾. ولعل في ذلك إقراراً ضمنياً بالرأي الذي كرّره الأزدي والمتمثل في أن القبائل الشماليّة ومنها تميم لم تلعب دورا فعّالا في فتوح الشام بما أن اهتمامها تركز على الجبهة العراقيّة وذلك خلافا للقبائل الجنوبيّة⁽⁴⁾.

مقابل ذلك يُستنتج من محتوى فتوح الأزدي أن دور القبائل اليمينية كان أساسيا في السيطرة على الشام : فلننقل عن أكثر من رمز من رموز المدينة أن تشريكها إلى جانب القبائل الشماليّة كان شرطا لنجاح المشروع برمته⁽⁵⁾ فقد استدرك في موضع آخر بأن الخليفة اعتبر اكتمال تجمع القبائل الجنوبيّة حول المدينة ضروريا لبدء توجيه الجيوش إلى الشام⁽⁶⁾. وفي هذا الإطار توسع الأزدي في استعراض وصول عشائر حمير ومراد و مذحج والأزد و طيء

(1) الطبري، نفس المصدر، ص3 389، 396، 397/ ابن عساكر، نفس المصدر، ج1 ص 519.

(2) البلاذري، نفس المصدر، ص 149، 184 و ما بعدها/ تاريخ ابن خياط، 130، 131.

(3) مقال لصاحب هذا البحث، قبيلة تميم من خلال روايات سيف بن عمر التميمي، أشغال الملتقى الدولي الثاني حول القبيلة- المدينة- المجال في العالم الإسلامي، تونس 10-12 أبريل 2003 ، نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ص55-95.

(4) "... فإنهم (ربيعة و تميم و أسد) كانوا بالعراق، و كانت دارهم عراقية و قلّ مَنْ شهدها (فتوح الشام) منهم. و كان عظمهم و جهم (غزاة الشام) أهل اليمن. فمن هناك كثروا بالشام ، و كانوا سكانها و أهلها."، الأزدي، محمد بن عبدا لله ، نفس المصدر ، ص16.

(5) قال عبد الرحمن بن عوف مخاطبا الخليفة أبا بكر: " يا خليفة رسول الله، إنها الروم... حدّ حديد و ركن شديد و الله ما أرى أن تقحم الخيل إقحاما، و لكن تبعث الخيل فتغير في أدنى أرضهم... ثم ترجع إليك. فإذا فعلوا ذلك مرارا أضروا بعدوهم... ثم تبعث إلى أقاصي اليمن وإلى ربيعة و مضر فتجمعهم إليك، فإن شئت عند ذلك غزوتهم بنفسك و إن شئت بعثت على غزوهم غيرك"، أبو إسماعيل الأزدي، نفس المصدر، ص3.

(6) الأزدي، نفس المصدر، ص11.

وخشم و همدان إلى المدينة و كذلك الحُطوة التي نالها زعماءها من لُذُن الخليفة أبي بكر⁽¹⁾.

في نفس السياق وتبعًا لنهجه السالف صرّح الأزدي بأنّ أهل اليمن مثلوا غالبية مَنْ شارك في السيطرة على بلاد الشام؛ فكان حضور القبائل الجنوبية لافتًا في مختلف الوحدات المتجهة نحو الشام بما فيها تلك التي جاءت مع خالد بن الوليد من العراق والتي مثّلت فيها بُجيلة (وخاصة المنحدرين منهم من أحمس) القوة الضاربة⁽²⁾. وكنتيجة منطقية لذلك يؤكد الأزدي على الدور الأساسي لتلك القبائل في حسم مختلف الوقائع الشامية لفائدة المسلمين. فبالإضافة لانتماء غالبية المقاتلة إلى قبائل حمير والأزد و همدان وخولان ومَدْحَج وخشم وقُضاة ولخم وجُذام وغسان وعاملة وكندة وحضرموت وزبيد، فقد كان صمود مقاتليها أساسيا لقلب مجرى المعركة لصالح المسلمين؛ بل يُفهم من سياق الأزدي أن أداء زعماء تلك القبائل القتالي غطّى على دور زعماء المدينة ومكة في أكثر من مناسبة⁽³⁾.

هل يعكس تقييم الأزدي السابق واقعا تاريخيا أم هو مجرد صدى لتنافس قبلي في العراق؟

يلفُّ الغموض جوانب كثيرة من ظاهرة استقرار القبائل العربية ببلاد الشام مقارنة بما جرى في العراق. وقد يعود ذلك إلى أن جل ما نعرفه عن فتوح تلك المنطقة يرجع إلى المدرسة العراقية. ومع هذا فإن عدم تحول أجناد الشام الكبرى (الجابية بالجوّالان والرملة بفلسطين) إلى أمصار نشطة وواسعة

(1) الأزدي، نفس المصدر، ص 9، 10، 11، 16، 24، 25، 39.

(2) " .. كان خرج مع خالد من بُجيلة، و عَظْمهم من أحمس، نحو من مائتي رجل و جماعة حسنة من طيباء ... وكان أصحابه الذين دخل بهم الشام ثمانمائة رجل و خمسين رجلا. و لم يَصْنَحْهُ إِلَّا قَوِي ذُو نِيَّةٍ وَ بَصِيرَةٍ لَّأَنَّهُ كَانَ يُحَمِّمُهُمْ أُمُورًا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ قَوِيٍّ جَلَدٌ، الْأَزْدِيُّ، نفس المصدر، ص 76، 77.

(3) الأزدي، نفس المصدر، ص 218، 222، 223، 224، 227.

كما كان الأمر بالنسبة لأمصارع العراق وذلك لأسباب عديدة حاول "دونر" (Donner) الإحاطة بها⁽¹⁾ يدلُّ على أنَّ العراق هو الذي استقطب أكثر القبائل العربية التي جاءت ضمن حركة الفتوح بمن فيها القبائل الجنوبية. من هذه الزاوية يمكن قبول ما ذهب إليه الأستاذ هشام جعيط في مقال له حول القبائل اليمانية بالكوفة خلال القرن الأول والذي أكد فيه على تركّز شتات القبائل الجنوبية بالعراق وخاصة بالكوفة وبالمغرب الإسلامي بينما بقي وزنها محدوداً في سوريا ومختلف مناطق الشام⁽²⁾. لكن هذا لا يجب أن يؤدي إلى فهم أن اليمانيين كانوا أقلية ببلاد الشام خلال القرن الأول أو القرون اللاحقة.

وفي الواقع ليس هناك ما ينفي ما أورده أبو عبد الله الأزدي في فتوح الشام حول الحضور الكبير للقبائل اليمانية في المعارك التي خاضها المقاتلون المسلمون ومن تحالف معهم ضدّ القوات البيزنطية خلال العقد الثاني من التاريخ الهجري. ويتكاملُ هذا مع ما توصل إليه عددٌ من الباحثين في تاريخ الشام والذي يؤكّد على أن القبائل اليمانية مثلت غالبية الجند الشامي في المعارك الكبرى التي وضعت الدولة الأموية في مواجهة عسكرية مع أعدائها في القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني⁽³⁾. ولو نضيف إلى هذا ما تنقله بعض المصادر⁽⁴⁾ والأبحاث عن أهمية وجود تلك القبائل وحيوية دور

1) Donner Mc Grow, *The Early Islamic Conquests*, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, p. 245..

2) Djaït H., Les Yamanites à Kûfa au premier siècle de l'Hégire, *Journal of Economic and Social History of the Orient*, Vol. XIX, Part II, p.148-181.

3) يوليوس ولهاوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، نقله إلى العربية عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968، ص 177/ عبد الأمير دكسن، الخلافة الأموية (65-86/705-684): دراسة سياسية، بيروت، دار النهضة العربية، 1973، ص 141، 140، 142/ نجدة خمّاش، الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أموية، دمشق، دون تاريخ ص 84، 86/ حسين عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، دار الجليل، بيروت 1987، ص 101 وما بعدها.

4) الهمداني، الحسن، صفة جزيرة العرب، مطبعة ليدن المحروسة 1891، ص 129-130.

بعضها السياسي خلال الفترة القبل إسلامية⁽¹⁾ فإن ذلك لا يعني غير الإقرار بحضورها الكبير بهذا الإقليم أثناء مرحلة الفتوح⁽²⁾؛ وذلك حتىّ مع افتراض عودة قسم منها إلى الحجاز أو إلى مواطنها الأصلية، وهو احتمال مُستبعد للأكثر من سبب، أو تحوّل بعض مجموعاتهما إلى العراق مع جيش خالد بن الوليد الذي التحق بجبهة القتال هناك بعد حسم المواجهة لصالح المسلمين بالشام. وإذا كان استنتاج الباحث عبد الأمير دكسن واردا لما ذهب إلى أن وقوف بعض القبائل الجنوبية المقيمة بالشام إلى جانب البيزنطيين في مواجهة حركة التوسع العربي الإسلامي قد يكون أضعف مكانتها بعد الفتح مباشرة⁽³⁾ فإن اعتماد الأمويين عليها في أغلب مراحل حكمهم لا بدّ أنه عزز مكانتهم ودعم وجودهم في مختلف مناطق الشام.

ولذا من الطبيعي أن يُظهر الاستقراء العام للتوزّع المجالي للقبائل العربية خلال القرنين الأولين من الهجرة هيمنةً شبه تامة للقبائل الجنوبية على المدن الرئيسية لهذا الإقليم وتدلّل على ذلك الصيغ التعبيرية التي بها لخص اليعقوبي الانتماء العشائري للمدن الشامية في القرن الثاني: "فأهل حماة قوم من يمن" و"أهل حمص جميعا يمن" و"الأغلب على مدينة دمشق أهل يمن"⁽⁴⁾. كما كان حضور فروع القبائل الجنوبية واسعا في محيط دمشق (مجموعات من غسان وقضاعة وحمير إلى جانب أقلية من قيس وقريش) وفي منطقة حمص (كندة وطيء وحمير وكتب وهمدان مع قلة من إياد وقيس) وفي شمال الشام (أين تكثرُ سليم وزبيد وهمدان وكندة وطيء مع وجود أقلية من قيس وإياد)

(1) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، مطبعة المعارف، بغداد 1959، الجزء الأول، ص 54 وما بعدها.

(2) محمد خريسات، دور العرب المنتصرة في الفتوحات، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلد الثاني، 135-164.

(3) عبد الأمير دكسن، المرجع السابق، ص 140

(4) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي 1988، ص 85، 87،

وفي فلسطين والأردن (لحم وجذام وعاملة وكلب وعك ومذحج وغسان وقضاة)⁽¹⁾.

ما هي أبعاد تركيز محمد بن عبد الله الأزدي أصيل البصرة والذي عاش أغلب مراحل حياته في بغداد خلال القرن الثالث على الدور القبلي في فتوح الشام؟ هل هو مجرد سرد للوقائع أم استجابة لضرورات غير معلنة؟

كانت المشاحنات القبلية، بالإضافة للصراع المذهبي، أهم سمة مميزة للحياة السياسية في الفترة الأموية: بدت أهم مظاهره في التنافس الحاد بين القبائل الكلبية والقيسية في الشام وبين الأزدي والعشائر القيسية في البصرة وبالأقاليم الشرقية. يبدو ذلك واضحاً في المصادر المتوفرة إلى حدٍّ أن بعض الباحثين وفي مقدمتهم فلهاوزن جعلوا من هذا التنافس أحد التنافضات الأساسية التي عصفت بالدولة الأموية⁽²⁾. وعلى خلاف ما ذهب إليه دوزي في كتابه حول تاريخ مسلمي الأندلس⁽³⁾ لم يكن الصراع القيسي- اليميني امتداداً لصراع ما قبل إسلامي كما لم يكن مجرد صراع سياسي بحث كما رآه كل من جولدزيهر وفلهاوزن وشعبان⁽⁴⁾. فلئن كان في ظاهره تنافساً قبلياً فهو في حقيقته صراع على النفوذ والسلطة بما له من أبعاد اجتماعية، وتعبيراً عن ذلك نسجت القبائل تحالفات وغيّرتها بتغيير المعطيات السياسية والجغرافية.

ففي مواجهة الطموحات المضرة المستندة إلى شرعية دينية- نبوية نشأ بين القبائل يمانية الأصل بالشام ثم امتد إلى أكثر من إقليم في الدولة الأموية

1- عبد الأمير دكسن، المرجع السابق، ص 140، 141

2- يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1968، ص 380/ عبد الحي شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية 600-750م (132 هـ)، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1987.

3- *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Leiden 1961, vol. I p. 108.

4- Goldziher I., *Muslims Studies*, London 1967, vol I p.91. فلهاوزن، المرجع السابق، ص 176.

طموحٌ قام على الرصيد التاريخي القديم لليمن: فلأسباب موضوعية وقفتُ قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية الأخرى المقيمة بالشام (سكون والسكاسك وجدام وغسان) بقوة إلى جانب السلطة الأموية سواءً في مرحلة بنائها أو إعادة توحيدها خلال مرحلة ما عُرف بالفتنة الثانية وكذلك خلال مراحل التصدي لأعدائها المختلفين⁽¹⁾. وبالتوازي مع دور تلك القبائل كان لعشائر تجمع قبلي يمني آخر وهم الأزد المنتشرون في أمصار العراق والمنطقة الشرقية حضور لافت ومؤثر على الساحة السياسية وإن اقتضت الحالة السائدة في تلك المناطق ألا يكون لها موقف ثابت من الأحداث التاريخية، فتبدل موقفها وتغيرت تحالفاتها حسب المعطيات الطارئة. ولهذا نجدها مرة في صف أعداء الحكم الأموي وأخرى إلى جانب مُمثليه في العراق.

خلال القرن الثاني أيضاً أنضاف إلى الحس بالانتماء القبلي لدى الإخباريين وعيٌ من نوع آخر هو التعاطف المذهبي أو السياسي أو كليهما معا انعكس لا محالة على تركوه من أخبار وما دونوه من كتب. ولأنّ الإخبار كان شكلاً للدعاية السياسية في إحدى مظاهرها وكان الواجهة الفكرية للتنافس القبلي أو حتّى عشائريّ فقد كان هناك رجال جاهزين لتغذيته وتحويله إلى وعي تاريخي. وبما أنّ الوسط العراقي مثلاً، ولأسباب مختلفة، خلال القرن الأول والثاني المجال الجغرافي الملائم لتنامي هذا الصنف من الوعي التاريخي جاءت روايات أبي مخنف الأزدي (ت سنة 157 هـ/763م) مثلاً تعبيراً عن طموح عشائر من قبيلة الأزد الكوفية المناوئة للأمويين في أغلب أحداث القرن الأول وذلك في مواجهة روايات قبلية جنوبية أخرى ساندت الأمويين بالشام بقوة ونعني بها رواية عوانة بن الحكم (ت سنة 158 هـ/775م).

(1) الطبري، نفس المصدر، 5 ص 537، 538، 544، 610-6 ص 258، 277، 309، 310، 340، 348، 594 - 7 ص 134/ نجدت خماش، الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية، مؤسسة طلاس دمشق 1987، ص 157 وما بعدها.

ولا يخفى على الباحث أنّ هذا التقابل في محتوى الرواية ليس في غالب الأحيان غير تقابل في المصالح: يبرهنُ على ذلك ما نقله نصر بن مزاحم من تبريرات كلِّ من زعامات أزد العراق ونُظرائهم الشاميّين للدفاع عن وجهة تحالفاتهم في معركة صفين برغم المرارة التي يعاني منها كل طرف حينما يُدرك أنّه يقاتل أخاه الأزديّ. عبرَ عن ذلك بصورة مأسوية زعيم أزد الكوفة مخنف بن سليم الأزدي (جدّ أبي مخنف الإخباري) بقوله "إن من الخطب الجليل والبلاء العظيم أنا صُرفنا إلى قومنا وصُرفوا إلينا. فو الله ما هي إلّا أيدينا نقطعُها بأيدينا وما هي إلّا أجنحتُنا نحذفُها بأسيافنا..."⁽¹⁾.

وُصبح هذا التقابل في محتوى الرواية وخاصة في مصدرها أكثر جلاءً عندما يكون بين إخباريين منحدرين من تكتلات قبلية مختلفة كما الحال بين روايات أبي مخنف وسيف بن عمر التميمي (ت سنة 180هـ/ 796م) مثلما يبدو من رواياتهما الواردة في تاريخ الطبري عندما تتاولا أحداث الفتنة الأولى وما تلاها من تفاعلات⁽²⁾. وفي الاتجاه ذاته اختار سيف بن عمر في تأريخه لفتوح الشام الاستناد إلى مصادر تختلف عن تلك التي اعتمدتها موارد فتوح الشام للأزدي. وحتى وإنْ اتفق واشتركا في الأخذ عن مصدر واحد (عبادة بن الصامت وأبو أمامة الباهلي وقباث بن أشيم وأبو سعيد المقبري) فإنّ تخيّر المعلومة وانتقاء محتواها كان يتم على أساس قبلي بدرجة أولى إذ سعى كل واحد إلى إبراز دور مجموعته القبلية.

ضمن هذا السياق تدخل مصادر أبو عبد الله الأزدي إذ لا يجب أن يؤخذ توجه رواة الجيل الثاني بالخصوص على أنه تحزب أو اختلاق بقدر ما هو نزوع لتأكيد دور عشائر حمير ومذحج ومراد ولأزد وطيّء في النجاحات

(1) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1990، ص 263، 262.

(2) راجع: Djait Hichem, *La Grande discorde, Religion et politique dans l'Islam des origines*, édition Gallimard, Paris 1989 / عدنان محمد ملحم، المؤرخون العرب و الفتنة الكبرى (القرن الأول - القرن الرابع الهجري)، بيروت، دار الطليعة، 1998.

التي حققتها دولة المدينة في فتوحات بلاد الشام؛ فهي في هذه الحالة ضرب من الاعتزاز بالانتماء إلى كيان قبلي أو عشائري لعب دورا ما في صيرورة التاريخ الإسلامي.

3- أبعاد تمسك أبي عبد الله الأزدي بالمرجعية القبلية في السرد التاريخي؟

إذا كان الأمر بالنسبة لمصادر فتوح الشام، وقد عاشت ذلك الواقع الثقافي، مُبرِّراً تاريخيا فإن مجارة محمد بن عبد الله الأزدي الذي عاش حتى سنة 231هـ لنفس ذاك التفكير والأسلوب يبدو مثيرا للتساؤل.

فقد مثل القرن الثالث قرنَ بدايات التأليف التاريخي بمعناه الواسع أي الجمع بين مواد مستمدة من السيرة ومن كتب الإخباريين ذات المحتوى المتنوع والتوجه نحو صياغة تاريخ ذي أفق عالمي (اليقوبي وابن قتيبة ثم الطبري) مع العناية بالتاريخين الإقليمي والمحلي. هذا ما جعل هملتون جب يستنتج أن المجتمع الإسلامي دخل حينها مرحلة الوعي التاريخي على الرغم من معاداة الفقهاء الأولين للدراسات التاريخية¹. مع ذلك فإن الطريقة التي تناول بها محمد بن عبد الله الأزدي فتوح الشام ليست غير تعبير عن رؤية قبلية للتاريخ تعكس بدورها تواصل التنافس القبلي على المستوى الفكري. ما هي مبررات ذلك: هل يؤشر ذلك إلى عودة العصبية من خلال الكتابة التاريخية خلال القرن الثالث بعدما خبا توجهها بنهاية الدولة الأموية وبمجيء العباسيين عندما اتخذ الصراع أوجها أخرى؟ هل يعكس منهج الأزدي توجهها سياسيا أم موقفا من السلطة السائدة، أي رد فعل على سياسة العباسيين؟

يُثبتُ اهتمام هذا الأزدي البصري المنشأ والذي أمضى أغلب مراحل حياته في بغداد بتاريخ الشام شيئين هامين :

(1) دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس و محمد يوسف نجم ومحمد زايد، دار العلم للملايين، بيروت 1979 ص 152.

أولها أنّ العناية بمأثور الأزدي روايةً وفعلاً تاريخياً هو نوع من إثبات كفاءتها في مختلف الأقاليم وخاصة في مرحلة أساسية لبناء الدولة العربية الإسلامية. ويذكرنا هذا الموقف بما نجده عند أزدي آخر عني بتاريخ الموصل وأصر على الدور الريادي الذي أمنتُه تلك القبيلة أثناء الثورة العباسية عندما وقفت بقوة إلى جانب أبي مسلم القائد العسكري⁽¹⁾. مع الملاحظ أنّ ذلك قد يكون ردّ فعل على تراجع الوزن القبلي في المعادلة السياسية بسبب تغير ركيزة السلطة العباسية التي باتت تعولّ ظاهرياً على التأثير المذهبي في تحديد تحالفاتها المعلنة وكذلك على المجموعات العرقية غير العربية في تطبيق سياساتها؛ ومن معالم ذلك تقلص حضور الزعامات القبلية في الفعل السياسي منذ القرن الثالث.

ثانياً أنّ أبا عبد الله الأزدي ليس غير نتاج للوسط البصري خلال القرن الثالث وانعكاسات ذلك الوسط على الرواية التاريخية : فانطلاقاً مما نقله ابن النديم في فهرسته ومما جاء في كتب التراجم المتأخرة نسبياً كمعجم ياقوت الحموي⁽²⁾ وفهرست الطوسي⁽³⁾ وغيرهم يستنتج الباحث ببسر أنّ اهتمام رواد نقلة الخبر البصريين خلال القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي انصبّ على التاريخ السياسي والإداري وتاريخ الرجال والأنساب أخبار الانتشار والتوسع محتوياً. أما منهجياً فقد كانت البصرة مجالاً مفتوحاً لتأثير رواة السيرة والحديث وأيضاً لأسلوب مدرسة الأيام العراقية (وثقله الأساسي بالكوفة) المتميّز بالعناية بأخبار القبيلة والأنساب⁽⁴⁾. ولذا ليس مستغرباً أن يكون الوسط

(1) نقل أبو زكرياء الأزدي قول المنصور حيث يعترف بدور العرب اليمانية خاصة في الثورة العباسية " فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا و نهوضهم بدولتنا، تاريخ الموصل (مخطوط) ص 194، عن فاروق عمر، العباسيون الأوائل، 716/97-786/170، دراسة تحليلية للفترة العباسية الأولى، دار الإرشاد ببيروت، الجزء الأول ص45

(2) ياقوت الحموي الرومي، معجم الأديباء، بيروت، تحقيق إحسان عباس، دت.

(3) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، النجف، المكتبة المرتضوية، 1937.

(4) حول خصائص الكتابة التاريخية للبصريين راجع: عبد الحسين المبارك وعبد الجبار ناجي الياسري، كتاب أعلام البصرة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي 1983/ محمد جاسم

البصري في القرن الثالث مجالا تواجدت فيه مختلف اتجاهات التدوين التاريخي: ففي حين بات الآن واضحا أن أبا الحسن المدائني وازن في الأخبار المنسوبة إليه بين الرواية الحجازية ونظيرتها العراقية¹ فقد كانت المصادر المدنية حاضرة بقوة في أعمال مؤرخين بصريين آخرين أمثال خليفة ابن خياط (ت240هـ/854م)² وعمر بن شبة النميري (ت262هـ/875م)³ بينما اعتمد آخرون على موارد قبلية صرفة كما الأمر بالنسبة لأبي عبد الله الأزدي. فلئن لم تخل رواياته في فتوح الشام من إسناد فإن غالب أسانيده ترقى إلى موارد من قبيلته الأزدي كما تبين سابقا.

هناك معطى آخر لا بدّ أنه أثر على الرواية التاريخية البصرية وبالتالي على مؤلف كتاب فتوح الشام ويتمثل في "التحرر" السياسي الذي وسّم البصريين خلال القرنين الأول والثاني. فخلافا للكوفيين الذين وقفوا إجمالا ضدّ الأمويين وساندوا العلويين بقوة وكانوا مجال ارتكاز رئيسي للحركات الشيعية والإطار الذي نشأت في أحضانه الحركة العباسية يبدو أنّ موقف البصريين من جملة تلك الأحداث قد تميّز بنوع من البراغمية الواقعية. فلئن كانت البصرة الإطار الذي نشأت فيه أغلب الحركات الخارجية ومنه انطلقت عديد ثوراتهم ضد الحكم المركزي بدمشق خلال القرن الأول زيادة على كونها مثلت مجالا لتعبيرات فهمت على أنها مناوئة للسيادة العربية على الدولة كالتشعبية أو حتى معادية للدين السائد كالزندقة فقد اعتبرت مصرا ماليا للسلطة الأموية في العموم. زدّ على ذلك أنّ البصرة كانت مجالا لحركة فكرية مشهودة خلال القرنين الثاني

المشهداني، الفكر التاريخي في العراق، بغداد 1985/إسراء مصطفى عبد القادر، مدرسة البصرة التاريخية، مجلة المؤرخ العربي عدد 55 سنة 1997

(1) بدري محمد فهد، شيخ الإخباريين أبو الحسن المدائني، مطبعة الصفاء، النجف 1975/محي الدين لاغة، الإخباريون ونشأة الكتابة التاريخية عند العرب، أبو الحسن المدائني نموذجا، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بسوسة، تونس 2008.

(2) ابن خياط، خليفة، تاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة ودار القلم، 1977.

(3) ابن شبة، أبو زيد عمر النميري، تاريخ المدينة، تحقيق فهد محمد شلتوت، جدة، دار الأصفهاني للنشر، 1979.

والثالث للهجرة وفيها تبلورت أفكار المعتزلة والباطنية وحتى الزيدية؛ وقد كان القاسم المشترك بينها - وإنْ بتفاوت - إيلاءها العقل مكانة متميزة⁽¹⁾.

ومن البديهي أن تتأثر مواردُ فتوح الشام بهذا الوسط ولا سيما بالموقف من الأمويين : إذ يُلاحظُ المتأمل فيما يرد عن الأعلام التي نقل عنها الأزدي رواياته هو أنهم في مجموعهم غير مناوئين للأمويين بل أنّ الكثيرين منهم كانوا موالين لسياستهم: فمن غير المستبعد أن يكون عبد الله بن قرط الشمالي قد وقف إلى صف معاوية والشاميين أثناء الحرب الأهلية الأولى ضد علي بن أبي طالب بدليل إعادة تعيينه واليا على حمص من قبل معاوية سنة 55 هـ / 657م كما شارك في الجيش الشامي الذي توجهه لحرب البيزنطيين خلال السنة والتي توفي أثناءها بدمشق حسب أغلب الروايات أو أثناء تلك المعارك حسب أخرى⁽²⁾. وكذلك الأمر بالنسبة لحمزة بن مالك الهمداني الذي كان مقرباً من معاوية وسانده أثناء الفتنة الأولى إذ قاد جند قومه في معركة صفين كما كان أحد شهود التحكيم الممثلين لمعاوية في أعقاب تلك المعركة⁽³⁾.

أما عمرو بن مَحْصَن الأزدي فإنه ينحدرُ من بني غنم الذي يُفهم من سياق ابن سعد أنهم كانوا حلفاء حرب ابن أمية ثم أبي سفيان بن حرب خلال الفترة القبل إسلامية⁽⁴⁾ وأنّ هذا الحلف تواصل لاحقاً وبالتالي ساند العديد منهم

(1) أحمد كمال زكي، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني، دار المعارف بمصر، ص 88 وما يليها/ صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة، بيروت، دار الطليعة، 1969.

Pellat Ch., *Le milieu Basrien et la formation de Gahiz*, Librairie Maisonneuve, Paris 1953/ Du même auteur, art. al-BASRA, *Encyclopédie de l'Islam*, nouvelle édition, volume I p.1117-1118

(2) ابن خياط، خليفة، تاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة و دار القلم ببيروت 1977، ص 155/ المزي، جمال الدين، نفس المصدر، ص 14/ ابن عساكر، نفس المصدر، ج 32، ص 5

(3) نصر بن مزاحم، نفس المصدر، ص 44، 196، 207، 279، 507.

(4) ابن سعد، نفس المصدر، ص 89

من المقيمين في الشام الدولة الأموية على الأقل في بداية عهدها، مثل خالد بن يزيد بن كليب المعروف بأبي أيوب الأنصاري وعبادة بن الصامت⁽¹⁾. وضمن هذا السياق شهد عمرو بن محصن صفين إلى جانب معاوية وتصدى للمناوئين لسياسته؛ وتدلّ على ذلك مشاركته في قتل عمار بن ياسر⁽²⁾.

وكان قيس بن أبي حازم المعروف أيضا بأبي عبد الله البجلي الحمصي عثمانيا يصرّح بعذائه لعلي بن أبي طالب⁽³⁾ قد ساند معاوية بن أبي سفيان أثناء الحرب الأهلية الأولى وشهد وفاته ثم عايش الحرب الأهلية الثانية ومرحلة تركيز الحكم المرواني بما أنّ ابن عساكر يرجّح وفاته بين سنتيّ 97 و98 هـ/716 و717م حسب أغلب الروايات⁽⁴⁾. وكذلك الحال بالنسبة لأدهم بن محرز بن أسيد الباهلي الحمصي الذي تُجمع المصادرُ على أنه شهد معركة صفين إلى جانب معاوية⁽⁵⁾ ثم تواصلت مساندته للأمويين في الفترة اللاحقة بما أنه كان من بين الذين وُجهوا مع عبيد الله بن زياد لقتال التوابين في معركة عين الوردية التي قُتل فيه زعيمهم سليمان بن صرد كما أوكل له الحجاج بن يوسف مهام مختلفة⁽⁶⁾.

ولا يختلف الأمر بالنسبة لجل بقية مصادر الجيل الأول كأبي أمّامة الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى الأسلمي الأزدي وأدهم بن محرز بن أسد الباهلي، إذ كان الثاني من أنصار عثمان أثناء بداية الفتنة⁽⁷⁾ ووقف الأول مع

(1) ابن عساكر، نفس المصدر، ج16، ص 35، 39، 40، 180

(2) ابن عساكر، نفس المصدر، ج26 ص 174

(3) ابن عساكر، نفس المصدر، ج49 ص 460، 462، 465.

(4) ابن عساكر، نفس المصدر، ج26 ص 466

(5) نصر بن مزاحم، نفس المصدر، ص268/ ابن عساكر، نفس المصدر، ج 7 ص 464

(6) ابن عساكر، نفس المصدر، ج 7 ص 464، 465، 466.

(7) "كان من المُحضّنين على إعانة عثمان..."، الطبري، نفس المصدر، 4 ص 325

معاوية في معركة صفين⁽¹⁾ بينما كان الثالث من المناصرين الأشداء للأمويين في مواجهة التوابين⁽²⁾.

وتنطبق نفس الملاحظة على الجيل الثاني: فقد وقف حبيب بن مسلمة القرشي بقوة إلى جانب معاوية خلال الفتنة الكبرى وكان أحد قادته المقربين⁽³⁾ وناصرت عشيرة عمرو بن مالك القيني الأمويين أثناء الفتنة الثانية في بداية العهد المرواني⁽⁴⁾. وتحول عامر الشعبي الذي توفي في بداية القرن الثاني إلى مساند للسياسة الأموية بعد تقلب عميق لمواقفه من الأحداث التي عاصرها: فقد حضر بعض معارك الحرب الأهلية الأولى ويثبت ما نقله ابن مزاحم عنه من روايات ميله الواضح لقضية ابن أبي طالب في تلك المرحلة⁵ إلا أنه تحول لاحقاً إلى واحد من خصوم الشيعة وصرح بعداؤه لهم وهذا ربما ما يفسر هروبه من المختار أثناء الحرب الأهلية الثانية وانتقاله إلى المدينة وتعاونيه مع الأمويين وكان أهم مؤثر على ذلك اتصاله بمرwan بن الحكم وتوليته قضاء الكوفة في عهد عمر بن عبد العزيز⁽⁶⁾.

ومع ما سبق يجب الإقرار بأن تساؤلات مختلفة تبقى قائمة منها الدواعي التي جعلت أبا عبد الله الأزدي يتخير مصادر موالية للأمويين وإن كان ذلك تعبيراً عن تواصل للعصية القبلية بين اليمانيين والمضريين أم تعبيراً عن موقف مناوئ للعباسيين.

(1) نصر بن مزاحم، نفس المصدر ، 190

(2) ابن سعد، نفس المصدر ، 4 ص 293

(3) نصر بن مزاحم، نفس المصدر، ص 192، 200، 213، 234، 245، 246، 248، 489، 507، 511، 552/ الطبري، نفس المصدر، ص 352، 385، 421، 574

(4) الطبري، نفس المصدر، 6 ص 38-41

(5) نصر بن مزاحم، نفس المصدر، ص 51، 60، 179، 80، 236، 237، 239، 316.

(6) ابن سعد، نفس المصدر، ص 341-6 ص 246/ ابن خياط، نفس المصدر، ص 296، 313/ عمر كحالة، معجم المؤلفين، 5 ص 54

فبسبب نقص المعلومات عن الأزدي ذاته أولاً والأخبار المتصلة بدور القبائل في الحياة السياسية مع بداية القرن الثالث للهجرة ثانياً يبدو من الصعب تبرير تخيير أبي عبد الله الأزدي لموارده بوجود معارضة أزدية شاملة للحكم العباسي. فمن الثابت أن الكثير من زعامات الثورة العباسية سواءً بخراسان أم بالكوفة كانوا يمانيين بالانتماء (جديع بن علي الكرمانى الأزدي وأبو حميد الحميري) أو بالولاء (أبو سلمة الخلال) كما نقل أبو زكرياء الأزدي قول المنصور الذي أقرّ فيه بدور اليمانية في نجاح الثورة العباسية⁽¹⁾. ولعلّ المنصور يعني هنا يمانية العراق وشرق الدولة بما أن يمين الشام حافظوا في جملتهم على ولائهم للأمويين وكانوا متحفزين لنصرة أعداء العباسيين. فقد انضم الكلبيون إلى ثورة أبي محمد السفيناني وابن أبي الورد ضد السفاح في تدمر⁽²⁾ وفي نفس الفترة "بيّضت" القبائل بالجزيرة الفراتية (وفي جملتها يمنية) في مناسبات مختلفة بما يعنيه ذلك المصطلح من معارضة للرايات السود شعار العباسيين⁽³⁾؛ أمّا عثمان بن سراقه الأزدي فكان أحد قادة عبد الله بن علي العباسي الذي انتفض بالشام سنة 137هـ/755م احتجاجاً على حرمانه من الخلافة وتوريث أبي جعفر المنصور⁽⁴⁾. ويُستشفّ من السابق أن لا موقف واحد موحّد للقبائل اليمانية من السلطة العباسية، ويذكرنا هذا بموقفها من الأمويين عندما وقفت عشائر من قبائل كلب وتتوخ وجهينة وبالي والسكاسك والأزد وعكّ إلى جانب السلطة الأموية في حين وقفت عشائر من نفس القبائل ضد سلطة دمشق في البصرة والمنطقة الشرقية. لكن لا بد من الانتباه إلى أن ذلك لا يعني بالضرورة تطابقاً كاملاً في موقف العشائر اليمانية في شتّى

(1) حيث يقول: "يحقّ لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا"، أبو زكرياء الأزدي، تاريخ الموصل (مخطوط) ص 194، عن فاروق عمر، العباسيون الأوائل 97هـ/716م-170هـ/768م، بيروت، دار الإرشاد، الجزء الأول، ص 45.

(2) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، دار صادر، 5 ص 432 وما بعدها.

(3) ابن الأثير، نفس المصدر، 6 ص 57، 78، 95.

(4) ابن الأثير، نفس المصدر، 5 ص 464.

الأمصار: ولقد تتبّه الأستاذ هشام جعيط إلى ذلك التباين عندما لاحظ أن ثباتاً ميز موقف يمانية الكوفة بوفائها للعلويين ثم للمذاهب الشيعية المتفرعة عنهم حتى بعد نهاية الدولة الأموية وانتصاب الحكم العباسي بينما ارتبط موقف نظيراتها بالبصرة عموماً بالمتغيرات السياسية وخاصة بالصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب⁽¹⁾. ولذا من غير المستبعد أن يكون اختيار تركيز أبي عبد الله الأزدي لمصادره في تأريخه لفتوح الشام انطلاقاً من نفس الزاوية، علماً أن هذا الصراع تواصل بقوة خلال القرن الثاني والثالث في العراق وبالشام بل امتد إلى مصر والأندلس⁽²⁾.

خلاصة البحث:

يُعبّرُ الجيل الأول من موارد أخبار الإزددي عن واحدة من علامات ثراء الرواية التاريخية في بلاد الشام خلال القرن الأول. فقد عرف هذا الإقليم اتجاهاً نحو العناية بأخبار الفتوح إضافة إلى احتمال كونه كان مجال المبادرات الأولى لتدوين التاريخ العالمي (تكليف معاوية شرية الجرهني بتدوين أول كتاب في التاريخ). وفي نفس الوقت برزت في إطاره مؤشرات عديدة على الاهتمام الواسع بالمغازي إلى حدّ أنه تحول إلى منافس عنيد للمدينة في دراسة هذا الجانب، وذلك خلافاً لما اعتقده الباحث حسين عطوان الذي رأى أن معارضة الخلفاء الأمويين لدراسة السيرة أخرجت نشأة هذا المبحث إلى نهاية القرن الأول⁽³⁾.

فقد كان الجيل الأول من مصادر الأزدي في جملتهم صحابة والأكيد أن روايتهم لفعاليات فتوح الشام كانت رافداً آخر للرواية التاريخية في هذا الإقليم، إذ لم يكتفِ الشاميون برواية السيرة بل ساهموا في رواية المغازي إضافة

(1) Djaïet H., article op. cité

(2) ابن الأثير، نفس المصدر، 6 ص 384، 400، 406.

(3) رواية الشاميين للمغازي و السير في القرنين الأول والثاني للهجرة، مؤسسة دار الجيل ص 27.

لأخبار الخلافة بما أنّ اهتمام علماء هذا الإقليم من بداية الإسلام توجه إلى أمر المغازي مستفيدين من تجمع عدد من الصحابة والتابعين الذين حضروا أحداث الإسلام الأولى قبل أن يستقطبهم البلاط الأموي. غير أن ما يميز مدرسة المغازي الشامية هو توسع أفقها، فلم ينحصر نظرها عند مغازي الرسول كما الأمر لمثيلاتها بالمدينة أو نظيرتها بالعراق أين تداخل الاهتمام بأخبار الدولة الجديدة بأيام القبلية بل شمل أيضاً الحدث التاريخي العام ولاسيما أخبار الفتوح⁽¹⁾. وتُفسرُ هذه الحركية في بلاد الشام بعاملين رئيسيين: أولهما سياسي ويتمثل في الدور الذي لعبه الخلفاء الأمويون وتحديدًا معاوية ثم عبد الملك وإبنه الوليد وهشام في تشجيع العلوم والبحث عن الأخبار، أما العامل الثاني فهو مبادرة شخصيات إعتبارية برواية ما شهدوه أو سمعوه من أحداث. ويلتقي هذا مع عناية مختلف الإخباريين الأوائل بأخبار الشام، وينقل ابن النديم رأي أحد علماء القرن الثالث: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس والواقدي بالحجاز والسيرة وقد اشتركوا في فتوح الشام⁽²⁾.

خلال القرن الثاني ورغم ضغوطات سلطة بغداد بمحاولاتها تهميش الشام ومفكره تمكنت مدرسة الشام التاريخية لا فقط من الصمود بل واسترجاع حيويتها منذ نهاية القرن الثالث للهجرة. كان من أبرز ملامح تطورها في اتجاهين: رواية التاريخ الأموي ومناقبه ورواية المغازي والسيرة.

وبالنتيجة يصعبُ اعتبار مدرسة الشام التاريخية خلال القرنين الأول والثاني على الأقل مدرسة ثانوية مقارنة بمدرسة المدينة وحتى العراق كما استنتجه الباحث شاكِر مصطفى⁽³⁾. كما أنّ تنوع اهتمامات رواد الرواية

(1) شاكِر مصطفى، التاريخ العربي و المؤرخون، دار العلم للملايين، ج 1 ص 134 - 5.

(2) الفهرست، ص 137.

(3) التاريخ العربي و المؤرخون، ج 1 ص 119 و ما بعدها .

التاريخية في هذا الإقليم يقود إلى نتيجة خطيرة تقضي بالشك، أو على الأقل وضع الدراسات التي تبنت في تقسيم اتجاهات الكتابة التاريخية عند العرب إلى رواية عراقية ذات منزع قبلي ومعادية للأمويين وأخرى مدينية أو شامية لها خصائص مختلفة تماما موضع السؤال. إذ تثبت مصادر أبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي أنّ في الشام رواية قبلية لها امتدادات في العراق، وبالتالي لا قطيعة حاسمة بين إقليم وآخر.

من جانب ثانٍ، يبدو جلياً من خلال تتبع أخبار فتوح الشام تركيز أبي عبد الله الأزدي على مصادر محدّدة وأحيانا تفرّده بالنقل عن موارد غير متداولة في أخبار الفتوح والغزوات. بل أنّ الأزدي لم يرو عن آخرين أكثر شهرة مثل خالد بن معدان الكلّاعي الحمصي (ت 103هـ/721م) ومكحول الدمشقي (ت 112هـ/730م) وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري (ت 185هـ/801م) وعبادة بن الصامت أو رجاء بن حيوة وغيرهم من الذين اعتبرهم حسين عطوان رواد الرواية التاريخية في بلاد الشام خلال القرنين الأول والثاني للهجرة⁽¹⁾. ولئن كان اختلاف الانتماء القبلي والميولات المذهبية بين مؤلف فتوح الشام وبين سيف بن عمر الذي يُعد أهم مورد للطبري في الموضوع يُبرر اختلاف موارد أخبارهما فإن عدم استفادة الأزدي من أبي مخنف، وقد نسب إليه كتاب يتعلق بفتوح الشام⁽²⁾، أو من مُعاصره والبصري مثله أبي الحسن المدائني (ت 227هـ/842م) والذي يتطابق عنوان الكتاب المنسوب إليه حول الموضوع تطابقاً تاماً وترتيب أبواب فتوح الشام قيد الدرس⁽³⁾ يبقى محل تساؤل. ولا يمكن الجزم بما إذا كان أبو عبد الله الأزدي

(1) حسين عطوان، الرواية التاريخية في بلاد الشام في القرن الأول، دار الجيل.

(2) الفهرست، دار المعرفة ببغروت، دت، 136/ شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي 1 ص 79.

(3) "فتوح الشام أيام أبي بكر، أول خبر الشام مرج راط أيام أبي بكرن خبر بصرى، خبر الواقصة، خبر دمشق أيام عمر، خبر فحل حمص اليرموك ايلياء قيسارية عسقلان غزة قبرس"، الفهرست، دار المعرفة ببغروت، ص 150.

واعيا بأنّ تلك الأخبار ليست غير قليل من كثير وبكونها ليست غير وجهة نظر معينة وربما موجهة للأحداث.

ويطرح منهج مؤلف فتوح الشام هذا مسؤولية الإخباري في التصرف في المصادر، أي دور ذات المُخبر في توظيف الخبر التاريخي بما يتلاءم ونزوعه القبلي أو المذهبي أو السياسي. ويتمخض عن هذا إشكالات تلامس نسبية الخبر التاريخي وصحته عند الأزدي ومن خلاله الموروث التاريخي القائم على نفس الأساس، وهي قضية ستبقى مبسطة للدرس، لا يمكن حسمها ببسر لأنها من صميم الإشكالات الجوهرية لا في التاريخ فحسب بل في سائر العلوم الإنسانية.

قد يكتفي الباحث بتعليل إصرار الأزدي على تخيّر موارد خبرية قبلية بتواصل الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بحرصه على أن تأتي أخباره مُتميّزة عن المصادر المدنية التي اعتمدها الواقدي وابن إسحاق وحتى نظيرتها ذات الأصول الشمالية التي جمعها سيف والمحسوبة على الكوفة خاصة. لكن هذا لا يضمن سلامة الرواية ولا يخدم في شيء البحث التاريخي فضلا على أنه يجعل من الأزدي في مرحلة متدنية من مراحل تطور الكتابة التاريخية عند مقارنته ببعض معاصريه إذ لا دليل في كتاب فتوح الشام على نية في التخلي عن الإسناد كما فعل اليعقوبي (ت292 هـ / 905م) في تاريخه ولا نزوعا محتشما للتصل مما قد يجيء في متن الخبر من شوائب أو مأخذ كما فعل الطبري في مقدمة موسوعته؛ كما لا يمثل بناء كتاب فتوح الشام مؤشرا على أنّ أبا عبد الله الأزدي كان يعتبر الانتشار في ذاك الإقليم ضمن مسار تاريخي أشمل (تكون الدولة) كما فهمه ابن قتيبة الدينوري (ت893/276م) في كتابه الإمامة والسياسة وخليفة بن خياط (ت240 هـ / 854م) في تاريخه أو البلاذري (ت896/279م) في كتابه حول الفتوح.

من الطبيعي، والأمر كذلك، أن ينشغل الباحث الدارس لموارد الأزدي بالفائدة من تتبع أخبار التاريخ الإسلامي، ونستحضر هنا بعض الأبحاث التي

صدرت في السنوات القليلة الماضية سعى من خلالها باحثون مهتمون بالتاريخ إلى تبرير جدوى التاريخ الوسيط⁽¹⁾.

في هذا الشأن من الضروري الانتباه إلى أن تطور المعرفة في مختلف المجتمعات مرهون بالتحويلات الفكرية الحاصلة في صلبه والتي هي ذاتها مرتبطة بحراك أعمق في البنى الاقتصادية والاجتماعية وربما حتى بعوامل خارجية⁽²⁾. ولأن السمة العامة للمجتمعات العربية الإسلامية كانت قبلية وبسبب عبء الخلفية الدينية على مختلف المعارف بقيت الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين خلال القرن الثالث معرفة تقوم على الإخبار منها وتتخذ من الحدث المستقل بذاته متناً. ويجب الإقرار بأن هذا المنهج بقي صامدا لقرون لاحقة رغم المحاولات المختلفة لكتابة تأليفية لبعض محطات التاريخ الإسلامي (منذ القرن الثالث للهجرة) بما يستتبعها من صيغ ترمي من بين ما إليه إلى التقليل من حضور الإسناد في الروايات و إلى دمج الروايات مع بعضها وكذلك رغم النقد اللاذع أحيانا للتأريخ القائم على الإخبار فقط (ابن خلدون). كل ذلك يبرز التزام مدوّ فتوح الشام بالإسناد منها للتحقق من الخبر وأن يجعل من الحدث الممتد على حيز زمني قصير مادة أولية لتأريخه.

وكانت النتيجة أن تاريخه (الأزدي) جاء جافا لا ينم عن أدنى إبداع، لكن ذلك لا يقلل من قيمة مدوّ كتاب فتوح الشام بما أنه ليس في الواقع غير جامع للأخبار أي أراخ ينطلق من الحدث، من الما جرى حسب تعبير عبد العروي⁽³⁾، كذكريات وجدانية لأصوله الأزدية وبالتالي لذاته. فكتاب فتوح الشام ليس في

1) Guerreau A., *L'avenir du passé incertain. Quelle histoire du moyen âge au XXIe siècle ?* Paris. Le Seuil 2001/ Morsel J., *L'Histoire du Moyen Age est sport de combat. Réflexion sur les finalités de l'Histoire du Moyen Age.* Paris I. LAMPO 2007.

(2) الأثر الإيجابي لجلب الورق المصنوع من الصين على تدوين العلوم عند العرب في القرن أوسط القرن الثاني للهجرة، انظر: عبد السلام هارون، كيف ولدت الثقافة العربية، سلسلة نوادر المخطوطات 1953، بغداد، مكتبة الخانجي بمصر و مكتبة المثني.

(3) عبد العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى (1992)، ج 1 ص 78.

الواقع غير تعبير عن "تقدير شخصي" تماشيا مع منهج العدد الكبير من مؤرخي العصر الوسيط⁽¹⁾ قبل أن يكون حدثا مؤثرا في التاريخ الإسلامي، وهو ما يجعل من الصعب تقييمه على ضوء المدارس التاريخية المعاصرة سواء مدرسة الحوليات المناوئة لتاريخ الزمن القصير وللحدث المجرد أو حتى المدرسة التاريخانية التي تقرّ بأهمية الحدث وبإمكان فهم التاريخ باستقلال عن العلوم الأخرى.

(1) كولنجود، فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل، القاهرة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968، ص112.